مساحة خضراء

نجيب محفوظ .. والراقصة

فؤاد عبدالقادر

■ قيل إن الروائي العربي الكبير الحائز على جائزة نوبل في الآداب/ نجيب محفوظ كان يسير في واحدٍ من شوارع القاهرة على قدميه مستنداً على عكازه، عصاته جسمه، منحنياً قليلاً إلى الأمام.. كان ذلك قبل وفاته – رحمه الله.

توقفت أمامه سيارة من النوع الفخم في أسعارها.. كانت تقودها الراقصة المشهورة/ فيفي عبده!

قالت الراقصة: السلام عليكم يا أستاذ نجيب. فرد الأستاذ السلام. قالت فيفي: جرى لك إيه يا أستاذ مالك كده منحني، شايف الأدب لفين وصلك. رد بسرعة وذكاء: آه.. إنت شايفة قلّة الأدب لفين وصلّتك!

بالطبع الفوارق كبيرة وبون شاسع بين صاحب قلم وفكر وبين راقصة، كل ما تملكه هز الوسط وتحريك الغرائز الجنسية.. ومهما كانت القصة صحتها من عدمها فالدلالة واضحة ولا تحتاج إلى مزيد من التوضيح.

لكن القصة أو النكتة إذا ما حدثت فقد كانت إجابة محفوظ الحائز على جائزةٍ نوبل تلجم كل خطيب وتلقمها حجراً!

الروائي الإنسان/ نجيب محفوظ.. القلم المبدع.. رفد المكتبة العربية بأدب راق وفن جميل وأسس مدرسة أدبية رفيعة ينهل من ينبوعها العديد من الأدباء والروائيين.

اتحاد الأدباء.. إلى أين يقوده السياسي؟

● هل ينقص اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين تاريخ وتجربة في العمل الثقافي والوطني ؟. أم نظام أساسي طموح؟ أم أمانه عامة فاعلة .. أم مجلس تنفيذي ذو رؤية ؟ أم جاوي جديد يقود الاتحاد بنشاطه وأعماله ليعبر عن الحجم الحقيقي لهذا الكيان العريق بتاريخه الحافل بإنجازات في مستوى الوطن؟

كلنا يعرف نضالات وتضحيات الأدباء اليمنيين ضد النظام الكهنوتي وضد المستعمر الانجليزي حتى الاستقلال.

وكلنا يعرف معاناة كل أديب ومفكر من تسلط السياسي وإقصائه وتحجيم دوره الثقافي والفكري.. وتجبره وعنجهيته.. وكلنا عانى ويعاني إلى اليوم.

وأجزم بأنه قدر ذوي العقول في كل زمان.. أن يقودنا وعينا إلى مرافئ الشوق لغد أجمل وأروع.. لغد تسوده العدالة والحرية.. يعتز كل منا بنفسه وما يحمله من مبادئ وقيم إنسانية رفيعة.. ويعتز بكل زملائه من الأدباء والمفكرين .. وبكيان جمع الكل تحت مظلة الإبداع والوطنية.. ناضل السابقون ليجعلوا للأدب مكانة في الوطنية.. وواجهوا الملاحقات والسجون .. والإقصاء والمضايقات.

وكثيرا ما نردد حقيقةً أن اتحاد الأدباء والكتاب ولد وحدوياً ١٩٧٠ م، وناضل أعضائه من أجل مبادئ العدالة والحرية والتقدم والوحدة والديمقراطية والتنوير ولا يزالون .. ونعرف بأنه الشريك الفاعل في تحقيق الوحدة وإرساء التوجه الديمقراطي.. وكان جل أعضائه في القيادات الوطنية الفاعلة في اللجان التحضيرية للوحدة ومنها لجنة صياغة دستور الجمهورية اليمنية واللجان الأخرى.

فأي كيان مدني كان له ذلك الشرف وأي كيان جماهيري كان له تلك الإنجازات الوطنية الخالدة؟

ولا زلنا نحلم بوحدة تتجاوز حدود اليمن.. وحدة تضم أمصار الجزيرة العربية في طريق وحدة من مضيق جبل طارق إلى البحر العربي.

لقد كانت جهود اتحاد الأدباء والكتاب جهودا جبارة في إخماد حرائق الحروب والنزاعات بين الدولتين الشطريتين.. وفي إنهاء الصراعات التي أنهكت اليمن قبل الوحدة. وكان لهم الأدوار العظيمة في رأب الصدوع وتقريب وجهات النظر بين القيادتين السياسيتين.. وكانوا دوما في صف الشعب وآماله وطموحاته.

فكان الطرف الثالث بين طرفين متصارعين على الدوام.. لا يميل بولائه لطرف بل غايته سلامة اليمن أرضاً وإنساناً.. وكانت قيادات الاتحاد أقرب من كل شقيق وصديق في إطفاء شرارات الفتن.. فلا دول خليج ولا أوربا أو أميركا.. بل كان اتحادنا الوسيط الأول.. يعقد اللقاءات والمؤتمرات ويحدد الخطوات ليرتق ويردم ويطفئ .. وكان المبادر إلى كل قضية وطنية.. دون تحيز أو ميل .. فهو دوما ضد النزاعات والمحاكات والمشاريع الصغيرة.. ولهذا ظل مهموماً بالمشاريع الكبيرة.. وناضل من أجل تحقيقها.. وكانت عزة الشعب ورفعته مشروعه الذي حققه بالوحدة.

ولم يكتف اتحاد الأدباء بتلك الأدوار التاريخية.. فقد اضطلع بإذكاء مشاعل التنوير الفكرية والثقافية في أرجاء الوطن.. وكانت أنشطته من مهرجانات ومؤتمرات ومطبوعات تقود العقل إلى آفاق الفكر المتحرر والإبداع المتجدد.

لقد كان السياسي يلهث وراء المثقف ويسعى لكسب رضاه.. وكان المفكر المبدع مرجعية السياسي.

وكانت قيادات الدولتين تعمل لاستقطاب ولاء قيادات الاتحاد.. فتحرص تلك القيادات على حضور مؤتمراته.. وإلقاء الكلمات الوطنية من قبل رؤساء الشطرين.. بل أن الجميع كان يستقرئ مواضيع مجلة الحكمة شعراً ونثراً.. ويحللون افتتاحية كل عدد وكل بيان يصدر عن الاتحاد.

مشاريع صغيرة

فماذا جرى لنا اليوم في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ؟. وهذه الأزمة السياسية والمواجهات الدامية تستفحل يوما بعد يوم وتتسع ألسنة لهبها في حضر وأرياف الوطن.. وتلك الأعداد من الضحايا تتزايد باطراد.. وهذا هو الوضع الاقتصادي في تدهور مخيف.. والمواطن يُسحق بـ القتل والخوف والغلاء والفساد .. وهاهي المنشئات الخدمية تدمر .. ونعلم بأن الخاسر الأول والوحيد هو الإنسان اليمني من جراء ذلك القتل والدمار .. وأن أي فرد يسقط قتيلاً أو جريحاً مواطناً كان أو جندياً هو قتل لكل الشعب وأن كل منجز يدمر إنما هو رمز لكل الوطن في رمز ذلك القتيل والجريح أو تلك المنشأة من طريق أو مدرسة .. الخ

ماذا ينقصنا في إتحاد الأدباء والكتاب حتى يكون لنا الموقف الوطني الفاعل بين الفرقاء السياسيين.. أم أن البلاد ومصيرها لاتهمنا.. وهي مرهونة برغبات الساسة دون غيرهم؟!

لماذا يغيب دور اتحاد الأدباء والكتاب؟ أم أن في الأمر حكمة نحن أعضاء الاتحاد نجهلها.. فهاهي الأمانة العامة عُطلت اجتماعاتها الدورية منذ شهور.. .. والأمانة العامة هي من تدعو المجلس التنفيذي للانعقاد ..حسب المادة«١٤» من النظام الأساسي.. وهي التي تقدم تقاريريها الدورية إلى اجتماعات المجلس.. الذي بدوره ومن صلاحياته يدعو إلى مؤتمر عام للاتحاد في اجتماع دوري أو استثنائي مبرر.. وما يعيشه الوطن من رعب الاحتراب.. وبشاعة الفساد.. والغلاء والخوف الذي طال كل فرد.. وتكالب الساسة على الكراسي بأي ثمن .. ومهما تكن النتائج مؤلمة على المواطن.. كل ذلك وغيره ألا تصلح كمبررات لدعوة الأدباء إلى مؤتمر عام استثنائي.

محمد الغربي عمران

إن تلك الدعوات البريئة التي تروج من بعض الزملاء .. والتي هي نقيض لروح وأهداف الاتحاد بتاريخه الوحدوي والديمقراطي.. وتلك التوجهات التي يتبناها بعض الزملاء لمشاريع صغيرة.. إنما هي صدى لإرادة السياسي.. الذي أثبت دوما فشلة وهروبه إلى الأمام.. والذي لا تسيره إلا المصلحة الذاتية.. على نقيض آباء الاتحاد الذين لم يخضعوا لما يمليه السياسي الذي ينظر إلى القضايا الوطنية نظرة البياع المشتري مع تركيزه على نسبة الربح والعائد الذي سينتفع به.. ولايهمه ما سيتعرض له المجتمع من كوارث ونكبات جراء توجهه

فكم هو عظيم من يتبنى المشاريع الكبيرة.. وكم نحن بحاجة إلى استلهام مواقف رواد الأدب والفكر.. ممن كان لهم شرف الدفاع عن مصالح المجتمع رافضين تلك الدعوات المشبوهة.. وكم هي عظيمة أعمالهم وكتاباتهم: البردوني..الجاوي.. باوزير.. باكثير.. جراده.. الشحاري.. الربادي..المحضار.. سبيت.. وغيرهم من عظماء الفكر والأدب في هذا الوطن.. ماذا لو وقفوا على بعض دعواتنا لتلك المشاريع الصغيرة.. أليس من المخزي أن نقف كصدى لرأي سياسي باهت فاشل.. أم نحن نفكر بشكل إنتهازي باحثين عن تحقيق أحلامنا ولو سرنا في طريق السياسي من خلال ذلك.. أن نحقق ما يخصنا سواء في السلطة أو المعارضة.. مروجين لأفكار وتوجهات لا تضيف لرصيدنا الشخصي أو رصيد اتحادنا الشيء المشرف.

فشل السياسي

إن دور المنظمات الأهلية – وبالذات تلك الاتحادات والنقابات والجمعيات التي تضم في عضويتها المفكرين والمثقفين والأدباء– لدور عظيم.. خاصة عندما تعصف بالمجتمع أزمات تهدد السلم والأمن الاجتماعي.. وتنتهك الحقوق والحريات.. وتتعرض الأنفس والممتلكات للاعتداء والتخريب والنهب والسلب .. وتلك المنظمات يجب ألا تمارس ما يمارسه العامة والمنظمات التي يندرج في عضويتها عدد من ذوي الوعي المحدود.. ولا يجب أن نبرر مواقفنا المتخاذلة من أداء واجبنا الوطني للوضع المتدهور..كما يعلله المواطن العادي. وعلينا أن نستمد موقفنا وتوجهاتنا مما تمليه علينا ضمائرنا .. وإنجاز من سبقونا من قيادات الاتحاد إبان الأزمات والحروب.. وكذلك على أن نستنير بأهداف ومبادئ نظامنا الأساسي

أن نكون مع الشعب مع حريته مع العدالة وقيم الخير والتقدم. ولا نكون مع طرف ضد طرف من الأطراف المتنازعة إن مواقفنا المتخاذلة أثبتت سلبيتنا حين تركنا السياسي يقودنا ويملي ما يجب فعله.. وتركناه يستغلنا ويضعف كياننا.. وجعلنا من أنفسنا تابعاً له كالعميان.. واليوم علينا أن نتحرر من رغباته ونزعاته المدمرة.. وأن ندرك بأننا من نساهم في خلق وعي شرائح المجتمع.. لا أن نترك عقولنا لما يمليه السياسي الذي أثبت فشله المخزي وهو يقود البلاد إلى الهلاك.

وأنا أسأل نفسي وأسأل جميع الزملاء.. لماذا لا نقف بين الأطراف المتحاربة رافعين أصواتنا «كفى».. وأن نترك الحزبية خلف ظهورنا.. وأن نضع أنفسنا موضع المسؤولية لندعو الفرقاء إلى إيقاف تدمير البلد.. وأن نرسم طريق العقل والسلام والحرية ونقف بينهم فاتحين صدورنا لنحميهم من رصاصهم.

وألا تكون مواقفنا مثيلة لمواقف من سبقونا من مؤتمر العلماء ومؤتمر القبائل وبعض الفئات.. مع أو ضد.. بل نتفهم للجميع ونسمع للجميع دون أن نصدر أحكاما.. أو نغلط أحداً .. وأن نكون مع الديمقراطية.. والسلام الذي يحفظ للوطن أمنه وسلامته ويحفظ للمجتمع دمه وعرضه وماله.

في حرب صيف١٩٩٤ م، وقف الجاوي موقفه المشهود.. وسطر بموقفه دورا مشهودا له.. ذلك الموقف كان موقفاً يعبر عن فكر وإيمان الراحل الكبير.. ولم يكن لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين مثيل بين الاتحادات والنقابات.. وكأن الاحتراب.. أو كما يسميها البعض دورات الدم التي تزورنا وكأنها قدرنا كل عدد من السنوات.

بعد احتراب١٩٩٤ م، تخاذل اتحاد الأدباء حين أخذ السياسي يسير المبدع في مربع التبعية وكانت بداية.. واليوم ها هو الأديب مرتهن في جيب السياسي.. إمعة دون أن يكون له موقفه المعلن.. أو أن السياسي استطاع تدجينه.

فهل استنفذ اتحاد الأدباء أدواته ؟وهل تقزمت تطلعاته وارتهن الأديب بمواقفه للتحول إلى شعارات يرددها السياسي.. أو هو أجير قوت يومه .. أم أننا في أمانته العامة ومجلسه التنفيذي لا يعنينا ما يدور؟!

وأننا بصمتنا حددنا موقفنا مما يجري وننتظر القادم حتى نحدد موقفنا منه .. وقد اكتفينا بوظيفة أي جمعية صغيرة في أي حي أو أي قرية.

فمن جمد أنشطة اتحادنا ومن ألغى اجتماعات هيئاته الدورية.. وأي مبرر يحكى.. فكل المبررات ممجوجة.. إذا قارنا ظروفنا بتلك الظروف التي كانت هيئات الاتحاد في زمن التشطير تعاني منها ومع ذلك كانت اجتماعاتها منتظمة.. وأنشطتها مستمرة.. وكان ذلك في ظل دولتي الشطرين المتعاديتين.. إن لم يكن الاجتماع في ظل احتراب وإقفال حدود بين عدن وصنعاء ومضايقات وملاحقات لمن يريد العبور من وإلى إحدى العواصم الشطرية .. فأي عذر لنا اليوم في تجميد أنشطة فروع الاتحاد واجتماعاته الدورية .

وعليه أتمنى على تنفيذيي الاتحاد الرئيس والأمينة العامة تفعيل اجتماعات الاتحاد الدورية.. وأن يعاد إحياء المقرات بالأنشطة والمتابعات الإدارية.. ومنها مقر الأمانة العامة» صنعاء» الذي أمسى مهجوراً إلا من السيد العزيز عبده الحارس الأمين.

والدعوة إلى مؤتمر استثنائي للاتحاد يكون انعقاده في الحديدة.. أو المكلا.. أو ذمار أو سيئون.

إن الوطن يحتاج منا بعض التضحيات.. واتحاد الأدباء بهاماته الكبيرة يمكنه إن يلعب دورا في حل أزمة الوطن .. ويمكننا أن نشكل لجنة أو فريق عمل ينبثق عن المؤتمر الاستثنائي المزمع انعقاده للتواصل مع جميع فئات الأزمة ابتداء بقيادات القضية الجنوبية مرورا بقضية صعدة فالسلطة والمعارضة.. ومن المفترض أن تكون وساطتنا قبل وساطات الدول الصديقة والشقيقة.. وأن لا نكون طرف ضد أو مع أحد .. بل أن نعبر عن أهداف ومبادئ اتحادنا.. وتطلعات الشعب.

إن الشعب ينتظر منا الكثير.. ويتساءل الكثيرون أين ذهب اتحاد الأدباء ولماذا يغيب.. وهل الإتحاد يشعر بمعانة الشعب في محنته؟

أن نكون أحراراً

علينا أن نكون مع الوطن مع الناس البسطاء.. مع التغيير.. وإن استدعى الأمر مع رحيل كل قيادات الصراع.. أن نرفض من لا يهمهم إلا البقاء أو الوصول للكرسي.

علينا أن نجتمع لنناقش الحرائق التي أشعلتها السلطة والمعارضة.. وكيف يكون المستقبل في وطن تتقاذفه الأمواج.. في وطن نرسي حلول لجميع قضايانا بعيداً عن العنف.. بعيداً عن القتل والتدمير.. أن نفتح جميع القضايا وندير نقاشات لنصل من خلالها إلى احترام شعبنا وقناعاته.. أن نسلك منهجية حضارية.. منهجية تحقق ما يصبو إليه المواطن العادي قبل الصفوة.

إن الوطنية لا تعني التمترس خلف آرائنا وقناعاتنا.. ولا برفع شعار «الذي مش في صفي عدوي».. إن الوطنية تقتضي عدم فرض آرائنا على بعضنا..وإلغاء ما سوانا.. الوطنية تعني احترام كل الآراء والاتجاهات مهما كانت ومن أي كانت.. وأن يسود الحوار للوصول إلى ما يريده الناس.. من مساواة ولن يتم إلا بالعمل على بناء وطن متعدد .. وطن القانون فيه يسود على الكل.. وطن الحرية والعدالة.

وعلينا أن نتبنى المشاريع الكبيرة.. ولا نسمح للمشاريع الصغير أن تقزمنا. اليوم اتحادنا على مفترق طرق.. كما هو الوطن.. وغدا سيُكبر أو يحقر مواقفنا القادمون.. فالمرء حيث يضع نفسه.

أن نتحرر من تبعية السياسي.. وأن نبحث عما يأمل الناس منا تحقيقه.

هي دعوة صادقة لجميع أعضاء اتحاد الأدباء والكتاب، أن نعمل على عقد مؤتمر استثنائي حسب مواد النظام الأساسي للاتحاد.. لنتحاور ونتناقش فيه بحريه بحجم الفضاء.. وأن لا تضيق صدورنا من أفكار بعضنا البعض.. وأن نشجع تبني الآراء.. وتعدد الأهواء.. وأن نبحث عما يجعلنا دوما نحترم كل فكر .

الشكر للأخ رئيس الإتحاد والأمين العام الذين أوقعهم القدر في وضع لا يحسدون عليه.. وللأخوة أعضاء الأمانة العامة ممن يتحرقون شوقا للمساهمة في تفعيل دور الاتحاد.. وللأساتذة أعضاء المجلس التنفيذي أصحاب الفضل فيما وصل إليه اتحادنا من مكانة من خلال جهودهم الدؤوبة.. وخبراتهم الرائعة.

والتقدير للزملاء سكرتارية الفروع والأخوة أعضاء مؤتمر اتحاد الأدباء.. ولكل أعضاء الاتحاد.. ولكل من يختلف معي بالرأي.

algarby@gmail.com

تجربة مجلي الإبداعية في نادي القصة

■ يستضيف نادي القصة في تمام الساعة الثالثة والنصف من يوم الأربعاء القادم الروائي والشاعر عبدالناصر مجلي، والذي سيتحدث عن تجربته الإبداعية.. والحياتيه..

كما سيسلط الضوء الروائي هائل المذابي على الأعمال السردية لمجلي ثم يفتح باب النقاش بين المحتفى به وجمهور الحضور.

ومجلي من قلائل الأدباء اليمنيين الذين وظفوا تجربتهم الحياتية الغنية في أعمالهم خاصة وهو يعيش متنقلا منذ سنوات بين اليمن ومقر عمله في الولايات المتحدة الإمريكية.

ولذلك تعتبر تجربته الإبداعية مختلفة عما سواه خاصة وهو يركز على الأخر في أعماله وعلاقته بنا ونظرته إلى كل ماهو شرقي وعربي ومسلم .. إضافة إلى مايعانية العرب بعد حادثة الإعتداء على برجي التجارة.. كما يهتم عبد الناصر في أعماله بقضايا المغترب.. ذلك الذي يعيش في العالم الجديد..

ومجلي له أعمال صادرة عن دور نشر معروفة من أبرزها رواية رجال الثلج.

الإيسيسكو تعقد ندوة عن دور الجامعات الافتراضية فى التعليم المستمر

■ تعقد المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو- فى القاهرة، بالتعاون مع اللجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة، ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي المصرية، ندوة تربوية حول (دور الجامعات الافتراضية في تحقيق التربية للجميع والتعليم المستمر)، خلال الفترة من ٢١ إلى ٢٤ نوفمبر الجاري.

ويشارك في هذه الندوة أربعون (٤٠) خبيرًا فى تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والتعليم الإلكتروني، ومسئولون عن الجامعات الافتراضية، من المملكة العربية السعودية وسوريا والمغرب والإمارات وسلطنة عمان وتونس وفلسطين، وممثلون عن عشرين (٢٠) جامعة مصرية وعربية.

وتهدف هذه الندوة إلى بحث دور الجامعات الافتراضية ووظائفها التعليمية والتربوية، والتعرف على نظم عمل هذه الجامعات وقوانينها وهياكلها، ورصد تجارب الدول المشاركة في مجال دور الجامعات الافتراضية في تحقيق التربية للجميع والتعليم المستمر، وتحديد أساليب العمل المعتمدة لديها، ومناقشة أدوار البنية التحتية ومراكز التعلم الإلكتروني في تنفيذ مهام الجامعات الافتراضية، وتحديد أدوار هيئة التدريس والإدارة التعليمية الإلكترونية.

وسيمثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة فى الإشراف على هذه الندوة، الدكتور عبد الوارث سرحان.

قصة قصيدة سيمفونية

● طالما كان هناك مقدار كبير من القصص المختلقة حول مولد العديد من المؤلفات الموسيقية. وإن اختبار الصواب من الخطأ يحتاج إلى تحقيق موضوعي، إذ غالباً ما يُنظر إلى بعض تلك القصص على أنها مزيج من الخيال والواقع.

هناك تسليم بأن المقطوعة الموسيقية ليست محكومة دائماً بالظروف التي أحاطت بالمؤلف عند تأليفها. ومع ذلك، هناك الكثير من الوقائع أوردها المؤلفون أنفسهم، كان لها أكبر الأثر في دفعهم إلى كتابة بعض أعمالهم. من الأمثلة المتميزة في هذا الصدد السيمفونية الخيالية «Symphonie Fantastique» للمؤلف الفرنسي «هيكتور بيرليوز» (١٨٠٣–١٨٦٩).

ولدت هذه السيمفونية العاصفة، التي وصفها «أولين داونز» بأنها «سيمفونية تشنُّجية مازالت مؤثرة حتى يومنا هذا»، نتيجة وقوع الشاب المغمور ذي الشعر الأحمر والست والعشرين عاماً «هكتور بيرليوز» في حب الممثلة الإيرلندية «هنرييتا سميثون» التي قدمت إلى باريس لتقديم عروض شكسبيرية. كانت باريس عام ١٨٣٠ متساهلة عاطفياً مع العشاق من مختلف الأنماط. لكن «بيرليوز» سلك في تودُّده لتلك المرأة سلوكاً لم يشهد أحد في باريس مثيلاً له. سكن المسرح بين العروض وأثنائها. أرسل لها رسائل الشوق اليائسة. ارتمى على قدميها في الشارع مهدداً بتسميم نفسه. توسل إليها بكل وسيلة متطرفة، يعرفها كل من أضناه الحب، أن تمنحه عطفها. رفضت أي تواصل معه، وعدّت كل ماقام به مجرد هذيانات مجنون. إلى أن تحدّتها «السيمفونية الخيالية» أو «فصل في حياة فنان»، أن تظل متجاهلة وغير مكترثة.

وخشية من أن يكون ثمة شك في معنى السيمفونية في أي ذهن، خصوصاً ذهنها، زوّد «بيرليوز» مدوّنة السيمفونية ببرنامج مكتوب قال فيه «إن عمله يُصوِّر موسيقياً شاباً، مرهف الشعور وذا مخيلة متقدة، يقوده برود حبيبته إلى تناول جرعة من الأفيون بقصد الانتحار، لكنه لايموت بسبب ضعف الجرعة، بل يغوص في نوم عميق ترافقه رؤى غريبة. وأثناء ذلك النوم تتحول أحاسيسه وعواطفه وذكرياته إلى أفكار وصور موسيقية. وقد تمثّلت المرأة، حبيبته، بالنسبة إليه بلحن يجده ويسمعه في كل مكان».

دعيت الحركة الأولى من السيمفونية «أحلام وانفعالات قوية»، وصوّرت الحركة الثانية «حفلة راقصة» يشاهد فيها بطلنا، والغيرة تأكل قلبه، شاباً وسيماً لامعاً ومنافساً ثرياً يغازل حبيبته. وفي الحركة الثالثة «مشهد في الحقول» يسمع البطل حوار راعيَيْن فيُدخله ذلك الحوار الرعوي في حلم يقظة ممتع. وفي الحركة الرابعة يحلم الفنان بأنه قتل حبيبته، فيُدان ويُحكم عليه بالإعدام، ويرى نفسه مسوقاً إلى المشنقة. ويمثل ختام السيمفونية «سبت الساحرات» الذي يُصوّر البطل وسط ساحرات ومخلوقات غريبة جاءت لتشارك في طقوس جنازته.

لم تحضر الآنسة «هنرييتا سميثون» التقديم الأول لهذه السيمفونية. ومن المرجح أنها قرأت نص البرنامج. ولكن في غضون سنتين فصلتا بين التقديم الأول والثاني للسيمفونية لم تسر الأمور معها على نحو مُرْضٍ. فظهورها على خشبة المسرح في لندن، الذي لم يُكلَّل بالنجاح، أعادها إلى باريس مع كيس نقود فارغ ووضع لاتحسد عليه.

دعيت إلى حفل موسيقي لتجد نفسها على غير توقّع في مقصورة ستشهد منها تقديم سيمفونية من أحبها بشغف. وقف «بيرليوز» يقود العازفين. ووفقاً لشاهد وصف المشهد: «انتصب شعره الوردي اللون على جبهته مثل غابة بدائية على جرف عالٍ». كانت «سميثون» قبلة الأنظار أثناء قيادة «بيرليوز» للأوركسترا. وأخيراً اقتنعت بأنه يحبها، ووافقت، بعد مواقف عاصفة، على أن تغدو زوجته. لم يكن زواجهما سعيداً وانتهى بالانفصال (تزوجا عام ١٨٣٣ وانفصلا عام ١٨٤٢)، لكن السيمفونية الخيالية بقيت حية. اندفع فيها «بيرليوز» في حقل التأليف الموسيقي مثل بطل فاتح، ناثراً ألواناً صوتية بيدٍ قوية لم يضعفها التقيد بالعرف، مستخدماً لحناً دالاً على المحبوبة يكرره بتنويعاته في مجمل العمل، مما أكسب السيمفونية وحدة بنائية قوية.

لقد شكلت السيمفونية الخيالية منطلقاً كان له أكبر الأثر على التطور اللاحق للموسيقى. فقد تضمنت توزيعاً أوركسترالياً جريئاً غنياً بألوان صوتية لم تكن مألوفة في ذلك الزمن. كما تضمنت مادُعي بـ(اللحن الدال). واللحن الدال هو لحن قصير يشير إلى شخصية أو إلى شيء أو فكرة. وقد استخدمه بعد «بيرليوز» كل من «فاغنر» في أوبراته، و«ليست وريتشارد شتراوس» في قصائدهما السيمفونية. وقد أوحت السيمفونية الخيالية للمؤلف «ليست» بابتكار ما دُعي بالقصيدة السيمفونية التي تصور مواضيع مأخوذة من الأساطير الكلاسيكية أو من الأدب الرومانتيكي، يقول «هوغو لايختنتريت»: «إن السيمفونية الخيالية هي من أكثر الأعمال الرومانتيكية لفتاً للنظر، فقد كانت الرائدة في مجال السيمفونيات ذات البرنامج، والقصائد السيمفونية التي وضعها لاحقاً «ليست وشتراوس وتشايكوفسكي وآخرون».

ونختم الكلام عن «بيرليوز» بما قاله «كورت زاكس»: «يُعَدُّ بيرليوز من مرتادي الآفاق الجديدة، بل هو الرائد العظيم للموسيقى الحديثة، فهو الذي حطم الروابط التي تربط الموسيقى بالماضي، واتجه إلى أهداف غير معروفة، كما أنه وسّع مجال الموسيقى وتطلع إلى آفاق لم تُكشف عنها الحجب من قبل، وهو الذي منح الأوركسترا ثراء ومعنى لم يحلم به فنان قبله».